

الحلقة الرابعة  
القَصَصُ الدِّينِيُّ  
العَرَبُ فِي أَوْزْبَا

العَرَبُ فِي كَرَاتَا

عبد الحميد جودة السحار

١٢

أنوارُ قصرِ قرطبة تتألق ، وأصواتُ المغنياتِ تتردد  
 في أرجائه ، والجارياتُ في إقبالٍ وإدبارٍ كالأقمار ،  
 وكنوسُ الخمرِ تُفرغُ في البطون ، وشبابٌ فارغٌ يملأُ  
 القاعة ضجيجًا وعَجيجًا . والحكمُ بن هشام ينهلُ  
 من اللذات ، وهو غافلٌ عما يعملُ في صدورِ أحرارِ  
 الأندلسيين من ثورةٍ وضيق ، فهم يُشفقون على هذا  
 الملكِ الذي أسسوه بدمائهم ، ويخشون أن يتحملَ  
 المسلمون نتائجَ عبثِ الحكمِ ولَهوهِ . كانوا يطمعون  
 في أن يسيرَ بهم إلى الأرضِ الكبيرة ؛ إلى فرنسا  
 وإيطاليا وألمانيا ، لِيذكرَ اسمُ الله فيها في الغدوِّ  
 والآصال ؛ فإذا به يهجرُ الجهاد ، لِيقبلَ على  
 الكواعبِ الناهيات .

آه لو سارَ إلى عدوِّهم ، لألفأهم ليوثًا كواسِر ،  
 لا همَّ لهم إلا أن يُستشهدُوا ، أو يفتحَ الله عليهم  
 أرضًا جديدة ، أمّا وقد قعدَ عن الجهاد ، فحقَّ عليهم  
 جهادُه ليثوبَ إليه رُشدُه ، أو ينزعُوهُ عن ملكِه .

واجتمعَ في الرِّبضِ من قُرُطبةَ أعيانُ الفقهاء :  
 يحيى بن يحيى الليثيَّ صاحبُ مالِك ، وطالوتُ بنُ  
 عبد الجبار الفقيه ، وأبو حفصِ عمرُ بنُ شعيب  
 البلوطي ، وأهلُ العلمِ والورع ؛ وراحوا يُديرُونَ  
 قِداحَ الرأى بينهم ، فاستقرَّ أمرُهم على أن يثورُوا  
 على الحَكم ، وأن يخلعُوهُ ويؤلُّوا عليهم أميرًا آخر ،  
 من قرابته ، يحملُ المسلمينَ على الجهاد ، ورفعِ ألويةِ  
 الدينِ خفاقةً في العالمين .

وانطلقُوا في الرِّبضِ ، يُحرِّضُونَ الناسَ على الأميرِ  
 الذي انهمَكَ في لذاتِه ، ويؤجِّجُونَ في صدورهم

نَارَ الثَّوْرَةِ ، حَتَّى انْدَلَعَ لَهَا نَارُهَا ، وَإِذَا بِآلَافٍ مِنْهُمْ  
يُقَرَّرُونَ خَلَعَ الْأَمِيرُ الْمُنْصَرِفُ عَنْ سُنَنِ آبَائِهِ .  
وَطَارَتِ الْخُمْرُ مِنْ رَأْسِ الْحَكَمِ ، بَعْدَ أَنْ لَقِيَ  
قَوَائِمَ عَرْشِهِ تَكَادُ تَنْدُكُ ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ بِنَفْسِهِ  
لِتَأْدِيبِ الثَّائِرِينَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ وَكِبَارُ قُرَوَائِهِ  
يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ :

- لَا تُغَامِرْ بِنَفْسِكَ ، ابْعَثْ إِلَيْهِمُ الْجُيُوشَ .

- لَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ غَيْرِي .

وَخَرَجَ الْحَكَمُ إِلَى رَأْسِ جَيْشٍ عَظِيمٍ ،  
وَدَارَتْ فِي الرَّبِضِ مَعْرَكَةٌ رَهِيبةٌ ، سَالَتْ فِيهَا دِمَاءُ  
الْمُسْلِمِينَ ، وَامْتَلَأَتِ الشُّوَارِعُ بِجَثَثِ الْقَتْلَى ،  
وَانْكَسَرَ أَهْلُ الرَّبِضِ ، فَأَلْقَى الْحَكَمُ الْقَبْضَ عَلَى  
ثَلَاثِ مِائَةٍ مِنْهُمْ ، وَصَلَبَهُمْ عَلَى النَّهْرِ ، ثُمَّ خَلَّى بَيْنَ  
جُنُودِهِ وَبَيْنَ الْحَيِّ ، وَأَمَرَهُمْ أَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِلنِّسَاءِ .

أَعْمَلِ الْجُنُودَ السَّيْفَ فِي الثُّوَارِ ، وَهَدِّمُوا دُورَهُمْ  
وَمَسَاجِدَهُمْ ، وَسَلُّبُوا مَا فِيهَا مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ . وَنَزَلْ  
بِالثُّوَارِ كَرْبٌ شَدِيدٌ حَتَّى إِذَا مَا وَافَى الْيَوْمُ الثَّالِثَ ،  
عَفَا الْحَكَمُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، عَلَى أَنْ يُغَادِرُوا  
الْبِلَادَ مَعَ أَسْرِهِمْ ، فَرَاخُوا يَتَأَهَّبُونَ لِلرُّحِيلِ .



امتلات المراكبُ برجالِ مُطاطنى الرُّؤوس ، ونساءٍ  
تغسلُ وجوههنَّ الدُّموع ، وأطفالٌ مفزوعينَ  
مُروِّعينَ ، وقد وقفَ بينَ هؤلاءِ الذينَ تصدَّعتْ  
قلوبُهم ، أبو حفصِ عمرُ بنُ شُعيبِ البلُّوطى ، رافعَ  
الرَّأس ، يُصدِرُ أوامره إلى البحَّارةِ فى ثقةٍ وعزمٍ ،  
كأنَّما كانَ خارجًا فى غزوةٍ ، لا طَريداً لا يدْرِى إلى  
أينَ يسير .

وفصلتِ المراكبُ عن شواطئِ الأندلس ، فارتفعَ  
النَّحيبُ والعويلُ ، وشرِقَ الرِّجالُ بدموعِهِم ، حتَّى  
أبو حفصِ عمرُ بنُ شُعيبٍ تفرقتِ العَبَراتُ فى  
مآقيهِ ، ولكنَّ سرَّعانَ ما كَبَحَ جِماحَ عواطِفِهِ ،  
ورفعَ رأسَه ، فما للزَّعيمِ أنَ يَضْعُفَ أمامَ من وثَّقوا

به ، وألقوا إليه مقاليد أمورهم ، ليخرجهم من  
ظلمات الواقع البغيض .

وشقت المراكب غاب الماء ، حتى إذا بلغت بر  
العدوة ، هبط منها ثمانية آلاف ، حيث تقبلهم  
إدريس بن إدريس في فاس ، وانطلقت المراكب  
الأخرى تحمل خمسة عشر ألفا ، يقودهم أبو حفص  
إلى المجهول . واستمرت المراكب في انطلاقها ،  
لا لشيء إلا الماء والسَّماء وتسيح المسبحين ،  
والابتهاال إلى الله أن يفرج عنهم ما هم فيه من  
كرب شديد ، ولاحت الإسكندرية ، فخفقت  
القلوب في الصدور ، واشرابت الأعناق ، ودبت  
في المراكب الحياة ؛ فقد أصدر أبو حفص أمره  
للرجال أن يتأهبوا ، فقد قرأ رأيهم على النزول إلى  
الإسكندرية .

وَدَخَلَتْ الْمَرَائِبُ الْمَرْفَأَ ، وَطَفِقَ الرُّجَالُ يَقْفِزُونَ  
إِلَى الْأَرْضِ كَالْأَسُودِ ، وَقَدْ شَهَرُوا أَسْيَافَهُمْ وَكَثَرُوا  
عَنْ أَنْيَابِهِمْ ، فَلَمْ يَعْذِ أَمَامَهُمْ إِلَّا احْتِلَالُ  
الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، أَوْ الْمَوْتُ دُونَهَا .

وَسَاحُوا فِي الْأَرْضِ ، وَانْتَشَرُوا فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ ،  
وَمَا سَقَطَ اللَّيْلُ ، حَتَّى كَانَ أَبُو حَقِصٍ عَمْرٍ  
بْنُ شُعَيْبِ الْبَلُوطِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ ، صَاحِبَ الْكَلِمَةِ  
الْمَسْمُوعَةِ فِي الْبَلَدَةِ .

أَفْرَعَ سَقُوطُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي أَيْدِي الْأَنْدَلُسِيِّينَ  
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَلْحَةَ ، صَاحِبَ مَصْرَ لِلْمَأْمُونِ  
ابْنِ الرَّشِيدِ ، فَجَمَعَ جُمُوعَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى  
الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، لِيَطْرُدَ مِنْهَا هَؤُلَاءِ الْغَاصِبِينَ ، الَّذِينَ  
جَاءُوا لِيَزِيدُوا فِي مَتَاعِهِ ، كَأَنَّمَا لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ تِلْكَ



الفتية التي اجتاحت البلاد ، وكادت تعصفُ به  
وبالخليفة الذي أرسله .

وبلغ الإسكندرية ، وحاصرها ، ودار القتال بينه  
وبين رجال أبي حفص ، وكان قتالاً رهيباً ، يشيبُ  
من هوله الوليد . وأطرق عبدُ الله بنُ طلحة يفكر ،  
فألفى أنه لو استمرَّ في قتال اليائسين فسَيوهنُ  
جيشه ، وقد يُطمعُ ذلك السَّاحِطِينَ والمُتَرَبِّصِينَ ؛  
فألفى من الخير مصانعتهم ، وأن يؤدَّى لهم جانباً من  
المال على أن يُجلُّوا عن الديار . فأرسل إليهم رُسُلَه ،  
وقبلَ أبو حفصِ عمر بنُ شعيبِ الأندلسيَّ ما عرضَ  
عليه عبدُ الله بنُ طلحة من مال ، على أن يُجلُّوا إلى  
جزيرة من جزر الروم . وتأهبَ الرُّجَالُ للرحيل ،  
وفي صدورهم قلق ، وفي أنفسهم مَرَارَةٌ ، وبينَ  
جوانحهم حيرة . خيَّلَ إليهم أنَّ الدُّنيا قد سُدَّتْ في

وَجُوهِهِمْ ؛ وَلَوْلَا ثِقَّتُهُمْ بِزَعِيمِهِمْ لَاسْتَوَلَى عَلَيْهِمْ  
يَأْسٌ وَقَنْوُطٌ .

وَرَاخَ أَبُو حَفْصٍ يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ ؛ وَفِي وَجْهِهِ ثِقَّةٌ  
وَفِي نَفْسِهِ أَمَلٌ ، وَبَيْنَ جَوَانِحِهِ طُمَأْنِينَةٌ . كَانَ يَرْجُو  
إِخْدَى الْحُسَيْنِ ؛ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَرْضًا مِنْ  
أَرْضِي الْأَعْدَاءِ أَوْ يَمُوتَ شَهِيدًا .

وَعَادَرَتِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ أَرْبَعُونَ سَفِينَةً ، تَحْمِلُ  
عَشْرَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، تَتَدَفَّقُ فِي عَرْقِهِمْ دِمَاءٌ حَارَّةٌ ،  
وَتَرْتَسِمُ فِي مُحْيَاهُمْ قُوَّةُ الْعَزِيمَةِ .

رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ ثَبَجَ الْبَحْرِ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِيرَةِ ،  
وَالنَّسَابَتِ الْمَرَائِكِبُ تَحْمِلُ الْمُجَاهِدِينَ ؛ حَتَّى إِذَا  
لَا حَتَّ إِقْرِيطِشُ ( كَرِيْت ) تَحْفَزُ الرُّجَالُ ، وَقَبَضُوا  
عَلَى سِيُوفِهِمْ ، وَانْطَلَقَتِ الصَّيْحَاتُ مُدَوِّيَّةٌ مِنْ  
الْخَنَاجِرِ ، وَطَفِقَ الْقُرَاءُ يَقْرَأُونَ آيَاتِ الْجِهَادِ ؛

فاستشعر الرجال كأن نيران الإقدام تتأجج في صدورهم ، وكأن الكون قد أرهف لئسجل آيات بطولاتهم .

وأخذ الشاطيء يقرب رويدا رويدا ، فارتج المكان بالتهليل والتكبير ، وخيل لسكان الجزيرة أنهم يسمعون زئير الأسود ، ففرّوا مرتاعين . وخفت الحامية البيزنطية إلى الشاطيء ، تصدّ المغيرين ؛ ولكن المسلمين راحوا يقفزون من المراكب إلى الأرض في رشاقة الغزلان ، ويمشون إلى أعدائهم مشى الوغول ، وقد أطلت من أسيافهم المنون .

وانكسرت الحامية أمام سيل المسلمين الجارف ، فقرّت مفزوعة ، تحتمى بحصونها الداخلية ، تنتظر المدد الذي سيبعث به الإمبراطور ميخائيل الثاني ، إمبراطور الروم ، من القسطنطينية ، لطرد العرب

الذين لم يكتفوا بانتزاع الشام ومصر وشمال إفريقيا  
من أيديهم ، بل جاءوا يحتلون الجزائر ، ليضربوا  
حول بلاد الروم نفسها ستاراً حديدياً .

ثبت أبو حفص أقدامه على الشاطئ ، فكان أول  
ما بدأ به أن صاح برجاله : أحرقوا السفن .

فظفروا إليه مشدوهين وقد تسمرت أقدامهم  
بالأرض ، ولم يسرعوا خفافاً لتلبية أمره ، كما  
اعتادوا أن يفعلوا ، فإذا به يصيح ثانية ، وفي غضب  
وعزم :

- أحرقوا السفن .

وأفاقوا من الدهول الذي دثرهم ، ووجدوا  
السنتهم ، فقالوا له :

- كيف تفعل ذلك ؟ أتريد أن تقطع بيننا وبين

بلاد المسلمين ؟

فقال في ثورة ؟

- فِيمَ شَكَوَاكُمْ ؟ أَلَمْ أَهْلِكُمْ إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ

بِالْبَيْنِ وَالشَّهَدِ ؟

- وَأَوْطَانُنَا ؟

- هَذِهِ أَوْطَانُكُمْ ، انْسُوا أَوْطَانَكُمْ الْقَاحِلَةَ

الْمَاحِلَةَ ؟

- وَنَسَاؤُنَا ؟

- مَا أَكْثَرَ النَّسَاءَ الْحَسَانَ فِي الْجَزِيرَةِ ، إِنْ هِيَ

إِلَّا أَنْ تَسْتَوَلُوا عَلَيْهَا ، وَتُصْبِحَ نَسَاؤُهَا إِمَاءَكُمْ

- وَأَوْلَادُنَا ؟

- مَا أَجَلُ أَنْ تُنْسَلُوا هُنَا ، وَأَنْ تُصْبِحُوا آبَاءَ جَلِيلٍ

جَدِيدٍ ، يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ فِي الْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ .

وَمَاتَتْ اعْتِرَاضَاتُهُمْ أَمَامَ حُجَجِهِ ، فَأَهْرَعُوا إِلَى

السُّفْنِ يَحْرِقُونَهَا ، وَانْدَلَعَتِ السِّنَةُ النَّبِيرَانِ



كالأبالسة ، فزاد ذلك في عزم جنوده ، وأورث رجال الحامية البيزنطية وهنا على وهن .

تقدم أبو حفص في الجزيرة ، ولم يلق مقاومة ؛ فقد أهرعت الحامية إلى الجبال تحتمى بها ، ونزل بجنده في مكان فسيح ، وحفر حول معسكره خندقاً هائلاً ، فأطلق اسم « الخندق » على الجزيرة ، وحرّفه الغريئون فأصبح « كانديا » .

وظل أبو حفص في تقدّمه ، يَسْحَقُ كلَّ مقاومة تعترضُ سبيله ، حتّى خلا له وجهُ الجزيرة ، وأصبحت كلمته هي العليا . وجزع ميخائيل الثاني إمبراطور الروم لسقوط « كريت » في أيدي هؤلاء المغامرين . فما إن انتهى من قمع الثورة التي قامت - في وجهه - في القُسطنطينية ، حتّى جهّز حملة بحريّة بقيادة أمير البحر « أوريغاس » ، لطرده الذين

انترَعُوا من الإمبراطورية ذلك الموقع الهام الذى  
سَيُصْبِحُ على الدوام شوكةً فى جنبها ، ما دام فيه  
هؤلاء العرب الذين راحوا يضربون حولها نطاقاً  
فولاذيّا .

انطلق أوريفاسُ بأسطوله إلى إقريطش ( كريت ) ،  
وما إن دنا من شواطئها حتى ألقى أبا حفص وجنوده  
يتأهبون لاستقباله . وعلى شواطئ الجزيرة دارت  
المعركة قاسيةً مريرةً ، سالت فيها الدماء ، وسقطت  
جثث القتلى ، وراح الموج يغمرها فى إقباله ،  
وينحسر عنها فى إدباره . ودوى المكان بالتكبير  
وصيحات المسلمين ، فألقى الله الرعب فى قلوب  
أعدائهم ، فتقهقروا مهزومين ، ولاذوا بمراكبهم ،  
ثم انسحبوا مذخورين يلحقون جراحهم ، وقد  
نكسوا رؤوسهم خزيًا وانكسارا .

وَاتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حِسانِ الْجَزِيرَةِ أُمَّهَاتِ  
أَوْلَادٍ ، وَأَصْبَحُوا آبَاءَ جَلِيلٍ قَتَى يَدِينُ بِالتَّوْحِيدِ ،  
وَيُؤْمِنُ بَوَطْنِهِ الْجَدِيدِ ، وَيَذُبُّ عَنْهُ غَارَاتِ أَبَاطِرَةِ  
الرُّومِ ، وَيُدَافِعُ عَنِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا زَعِيمُهُمْ :  
أَبُو حَفْصٍ عَمْرُو بْنُ مُشْعَبِ الْبَلُوطِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ  
الْإَقْرِبِيشِيِّ ، وَيَبْذُلُ فِي سَبِيلِهَا دَمَهُ ، وَيَجُودُ لَهَا  
بِرُوحِهِ وَمَالِهِ .